ثورة سنة ١٩١٩

[للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك]

منذ سبع وعشرين سنة زلزلت أرض مصر بثورة انفجر فيها غضبها مما نزل بها ، وجاش فيها تيار وطنيتها بعد أن عب عبابه ثم اندفع ذياداً عن كرامتها ؛ وقد كان هذا الحادث العظيم من مفاخر مصر التي تبقى على وجه الدهر صفحة مجيدة يزدهي بها كتاب جهادها .

ولقد كان كل مصري يود لو ينهض لتأريخ هذه الثورة عالم ثبت يحصي كل ما ذهب فيها من ضحايا وخسائر ، ويسجل ما عانته البلاد في سبيلها من مشقات وشدائد ، عادل نزيه يتولى درسها وتحليل أحداثها بروح الحق والإنصاف ، فلا يستميله هوى ، ولا يلوي به أرب .

وظلت هذه الأمنية تعتلج في صدور أبناء مصر هذا الزمن الطويل ، حتى ظهر في هذه الأيام كتاب قيم في جزءين كبيرين يؤرخ هذه الثورة الشاملة من قلم رجل أجمعت الأمة على صدق وطنيته وسعة إدراكه وعظيم جهاده ، ذلك هو الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك الذي توفر منذ عشرين سنة على دراسة الحركة القومية من فجر انبعاثها في العصر الحديث ، وأخرج في تأريخها تسعة مجلدات غير هذا الكتاب الذي بين أيدينا اليوم ، جعلها سلسلة متصلة الحلقات تؤرخ كل حلقة منها فترة من هذه الحركة أصدق تأريخ وأوفاه ، حتى لقد أصبحت هذه المجلدات النفيسة أوثق الأسانيد وأصحها لتاريخ مصر الحديث

قال مؤرخنا الجليل في كتابه الحديث: « إنه عرض وتأريخ لثورة سنة ١٩١٩ أعرضها وأؤرخها كما أرخت الثورة العرابية من قبل ، فهما ثورتان متعاقبتان في تاريخ مصر الحديث تتشابهان في الأغراض والمقاصد ، وإن كانت الثانية تفضل الأولى في النتائج »

ولما كانت هذه الثورة قد شبت عقب الحرب العالمية الأولى ، فقد مهد المؤلف بمصدر صالح من القول فيما كانت عليه مصر أثناء هذه الحرب من سنة (١٩١٤ — ١٩١٩) وما أصابها في هذه

وكان الفتى مغتبطا بهذا العهد الجديد أيما اغتباط ، وقد شعر المدير بما يحمله قلبه من حرص واجتهاد ، فما قصر في إغداق المساعدات عليه ، وحباه بمختلف الرفد والمعونة ، وصار يعهد إليه ، فوق ذلك ، ببعض المهام زيادة في تنشيطه ورفعاً لمستواه الفكري في ميدان الأعمال الإدارية والاجتماعية .

وقد ظل على ذلك المنوال حتى إذا أكمل مقررات الدراسة العالية دخل فحصا طويلا مرهقا ، ويخرج منه وقد نال أرقام الدرجة الأولى في أغلب العلوم والفنون ، وبذلك أخذ الشهادة العالية في طليعة من أخذها .

وكم كان اغتباط المدير بنجاح الفتى ونجاح زميله معه ، هذا النجاح الباهر الرموق ، وكان الفتيان الزميلان يمثلان وحدهما « الفوج الأول » من متخرجي هذا المعهد ... وفي أيام الاختبار الذي تخرج منه الفتى لوّح المدير له بأنه سيعينه عقب نجاحه مدرسا معيدا بالمدرسة غير أن ضرورات اجتماعية دعت الفتى إلى أن يقبل وظيفة كتابية بديوان إمارة المدينة المنورة ، وقد أحس يومئذ بشيء من وخز الضمير تجاه مديره الذي طالما عطف عليه فذهب إلى داره مبكرا ليقدم إليه جميل العذر ، فالعذر مقبول عند كرام الناس ، وانه ليصافحه إذ يسأله في تأثر :

— أحق أنك وظفت في الديوان ؟ ! ...

— أجل يا مولاي ، ولقد قضت بذلك ضرورات اجتماعية ، وسأخدم المعهد الذي له عليّ فضل وافر ، وأنا خارج عنه ، أكثر مما أخدمه وأنا فيه .

وكانت هذه الجمل التي خرجت من قلب الفتى يتهدج بها صوته في نبرات الصدق والإخلاص والوفاء بلسما لتأثر المدير الوقور ، فهتف قائلا :

— سنرى ما يكون من البر بوعدك الذي اقتطعته على نفسك .

وتلا ذلك صمت أدرك الفتى منه أن المياه قد عادت إلى مجاريها أو كادت ، فيستأذن منصرفا إلى تأملاته في الحياة والأحياء ، ماذا كان أمره من قبل وإلى ماذا صار ؟ وإلى ماذا سيؤول هذا الأمر ؟ ولكنه لم ينس قط لا في تلك اللحظة الدقيقة العابرة ، ولا فيما تلاها من لحظات وساعات وشهور وسنين ، واجب البر بوعده الذي اقتطعه على نفسه يومئذ لتلك الشخصية النبيلة الممتازة .

عبد القدوس الانصاري